

الأديب و المُفكّر الرَّاجِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدُ

عمالقة في التاريخ

الإسكندر المقدوني

التاريخ الإنساني في حضاراته المتتابعة تغيب بداياته في مجاهيل لم يستطع الباحثون حتى اليوم أن يسلطوا عليها الأضواء الكافية لأن الوثائق التي توفرت لهم هي من القلة والندرة والغموض بحيث عجزوا ويعجزون عن التعرف إلى تفصيلات الوقائع والأحداث القديمة .

لقد حفظت لنا الآثار الباقية صوراً باهتة لفاحين كبار وكشفت عن تطور في الهندسة والمعارف الانسانية لكن هذه الصور بقيت أشبه بالأشباح تحيد بها ظلمات كثيفة . ومع ذلك فإن في وسعنا التسليم بوجود قادة كبار لعبوا أدواراً خطيرة في إنشاء الممالك والامبراطوريات والآثار الباقية حتى اليوم والوثائق الشاهدة تشير بالأصابع العشر إلى رجال كبار عرفتهم دنيا القدماء من أمثال بعض الفراعنة في مصر والملوك في بلاد فارس وأمثالهم في العراق وبلاد الشام . وجهلنا بتفصيلات ما فعله هؤلاء القادة لا يعني أنهم لم يمثلوا دور العمالقة في صنع التاريخ البشري.

لكن الشخصية التاريخية التي نعرض لها في مقالة اليوم وهي شخصية الاسكندر المقدوني تبدو لنا من خلال الوثائق الباقية من أكثر الشخصيات التاريخية القديمة بروزاً في خانة العمالقة لا لأن الدنيا لم تعرف عمالقة سابقين عليه بل لأننا اليوم لا نستطيع أن نستبين من جاؤوا قبله ولعبوا أدوارهم التاريخية بصورة واضحة.

والإسكندر المقدوني ككل عملاق في التاريخ أتاحت له ظروف تاريخية ملائمة مكنته من أن يلعب الدور العظيم الذي عرف

له .

لقد ولد في عصر تشير كل معطياته إلى أن في وسعه أن يلعب دوره الخطير . وأهم هذه المعطيات ما يلي :

١ - إن الدولة الفارسية التي كانت قد بسطت سلطانها على أعظم أمبراطورية عرفها تاريخ الشرق القديم وأخضعت لسلطانها بلاد الفراعنة وبلاد البابليين والأشوريين والفينيقيين واستخدمت اليونانيين لأغراضها السياسية والعسكرية لم تلبث في عصر الإسكندر حتى بدأت تفقد سلطانها بعد أن انتشر الفساد في صفوف ملوكها واشرافها ثم امتد إلى طبقات شعبها وظهرت محاولات ثورية للتحرر من سلطانها في البلدان التابعة لها . بعضها يطمح إلى الاستقلال عنها وبعضها الآخر يخضع لسلطان الطغاة المستبدين من أبنائها بحيث أن الحكومة المركزية قد يئست من أن تقبض بنفسها على زمام الأمور . وبلغ من ضعفها أنها لجأت إلى اعدائها من بلاد اليونان تستأجرهم للدفاع عن مصالحها .

٢ - إن الأمة اليونانية لم تكن أقل من الأمة الفارسية تعرضا للفساد والفسوضى . وقد بلغ منها الضعف والانحلال والفساد الخلقي والسياسي مبلغاً جعلها تزهد في نظمها السياسة وتكفر بقادتها وذوي الرأي من أبنائها .

٣ - أن إيطاليا وبلاد الغرب الأوروبي لم تكن أقل عرضة للاضطرابات من بلاد اليونان والشرق . بحيث أن كل العالم القديم أصبح يتطلع إلى قيادة جديدة فتية تخرجه من المأزقة التي يتخبط فيها .

٤ - في ذلك الوقت بدأت تبرز في الأفق قوى جديدة ناشطة وفي مقدمتها قوتان : احدهما في مدينة روما التي راحت تبسط سلطانها شيئاً فشيئاً فيما حولها من المدن والقرى الإيطالية . وكانت معاركها عنيفة قاسية بينها وبين عناصر أخرى تنازعها سلطانها . والمعارك هذه نشبت بينها وبين الفينيقيين من أهل قرطاجنة ، وبينها وبين المدن الإيطالية الحريضة على استقلالها، ثم بينها وبين القبائل البربرية التي كانت تندفع من الشمال باتجاه إيطاليا وغرب أوروبا . فمن الطبيعي أن تكون تلك القوى المضادة حواجز مانعة لها من تسجيل القفزات الضرورية لفرض سلطانها .

أما القوة الثانية فكانت أقرب إلى الشرق في مقدونيا . ويبدو أن هذه القوة كانت أسرع إلى الظفر بما تطفح إلى تحقيقه من السلطان وأجدر بالانتصار على العقبات المطروحة أمامها . ربما لأنها كانت أقرب إلى مراكز الحياة الأدبية والسياسية الناشطة . فبينها وبين البلاد اليونانية حدود مشتركة كما أن بينها وبين بلاد الشرق علاقات وطيدة بالإضافة إلى قربها منها .

ويحدثنا التاريخ أن فيليب أحد ملوكها استطاع أن يبني قوة عسكرية ضخمة مكنته من بسط سلطانه على اليونانيين المجاورين فارغمهم على انتخابه قائداً لهم بحيث اجتمعت له قدرات إضافية وجهها مع قدراته الخاصة وجهة جديدة هي الاستيلاء على الشرق والقضاء على سلطان دولة الفرس القديمة لكن هذا الملك لم يلبث حتى تعرض للإغتيال فلم يستطع أن يحقق بغيته وأن يخرج أحلامه إلى حيز الوجود . هكذا نهض بالأمر بعده ولده الإسكندر واستطاع لا أن يحقق أحلام أبيه وحسب بل تجاوزها إلى ما وراءها إلى شيء لم يكن يخطر في بال أحد من معاصريه أو ممن كان قبله . لقد استطاع هذا الشاب أن يسيطر على العالم القديم كله ، العالم الذي كان المصدر الأقدم للحضارة البشرية .

والجدير بالذكر أن هذا الشاب لم يكن فاتحاً عسكرياً وحسب يحسن الكر والفر ، ويضع الخطط العسكرية الناجحة قصداً إلى تحقيق استراتيجية واسعة تستوعب الجوانب العسكرية وأغراضها والجوانب الحضارية ذات الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية .

وقد لا يعجب المتتبع لتصرفات هذا الشاب حين يذكر أن أرسطاطاليس الذي كان قمة فكرية علمية في عصره قد تولى الإشراف وعلى تربيته بطلب من أبيه الملك فيليب . فهو الذي غدى فكرة كما زود خياله بكل ما يحتاج إليه شاب مثله من ألوان الطموح وأنواع الأحلام التي ينهض لها كل ذي عقل نير، وعزيمة كبيرة ، وقلب حافل بالحماسة . لقد استطاع ارسطاطاليس أن يقدم إليه خلاصة التراث اليوناني الغني بأبعاده الانسانية.

والواقع أن الإسكندر لم يواجه مشكلة المد الحضاري اليوناني إلى ما وراء حدود بلاده إلا بعد أن واجه العقبات العسكرية وتعرض لعدد من الثورات كادت تهدد بالزوال كل المكاسب السياسية التي حققها أبوه من قبله.

لكن المواهب التي زودت بها العناية الالهية كشفت في شخصه عن إرادة فولاذية مكنته من الصمود أمام جيرانه الذين لم يقدره حق قدره فغرم منه شبابه وحادثة عهده بمعضلات الحكم وشؤونه . فلم يلبث حتى قضى على أطماع هؤلاء الجيران ومحا آمال اليونانيين في الاستقلال وأثبت قدرته على اخضاع الجميع ثم على تجنيدهم كلهم وتدريبهم واعدادهم جنوداً وضباطاً يتصرفون بأمره ويستجيبون لرغباته ويستعدون للتضحية بكل ما يملكون ارضاء له . وطبيعي أن السبب في تحقيق هذا الانجاز الكبير يعود

إلى تلك القوة الخفية التي يملكها الأفيذاذ من الرجال والتي لا تأتي بما تجارب الحياة بل تصدر عن عبقرية فطرية ونبوغ طبيعي لا يد لصاحبهما فيهما ابدا وان كانت تجارب الحياة مصدراً لصقل عقله وتطوير قدراته وتفجير ما يستكن في أعماق نفسه من الأطماح وما يمتلىء به قلبه من الأحلام.

ولم يكد الإسكندر يستكمل أهفته العسكرية حتى عبر بجيشه مياه البحر إلى البر الآسيوي ومضى يطارد الجيوش الفارسية بساحل مياه البحر حتى اخضعه كله لسلطانه. وبلغ الإسكندر بلاد الشام ثم تابع سيره إلى مصر حيث ورث ملك الفراعنه وقبل أن يغادر أرض مصر احتل مدينة الإسكندرية وجعل منها منارة من منارات البحر الأبيض المتوسط .

لكن أحلامه كانت أكبر من أن تستوعبها أرض بلاد الشام ومصر فغادر هذه الأخيرة ومضى قاصداً بلاد فارس وقضى على دولتها وورث عرشها . ثم لم يكفه ما حققه من الانتصارات ولم يرضه ما فاز به من الأعجاد وسجله من المفاز فتابع طريقه يطوي الجبال والسهول والصحارى حتى بلغ بلاد الهند فأوغل بها ايغالا شديداً وأقام القواعد العسكرية ووضع الحاميات فيها . فإذا به سيد مقدونيا واليونان ... ثم سيد بلاد الشام ومصر ، ومن ثم صاحب السلطان المطلق في بلاد فارس ، والفتاح المهاب في البلاد الهندية وما حولها . وبعد أن ألقى عصا التيار في بلاد الهند كر راجعاً إلى بلاد فارس واستقر في بابل طلباً للراحة . وقد كان في نيته أن يعود القهقري إلى القارة الافريقية على أمل أن يضمها إلى مملكته الواسعة بحيث يبلغ في سيره عمود هرقل أو مضيق جبل طارق وبذلك يقضي على سلطان الفينيقيين في قرطاجنة . ثم يتابع طريقه فيجتاز مياه هذا المضيق إلى شبه جزيرة ايريا فيبسط من هناك سلطانه على أوروبا الغربية فيتم دورته وينتهي بها إلى بلاده مقدونيا . وقد كان في وسعه أن يحقق هذه الخطة الواسعة الطموح لولا أن الموت قد عاجله وهو في بابل فلم يحقق بغيته.

هذه الجولة الواسعة التي بدأت من بلاد اليونان وانتهت في بلاد الهند ثم استؤنفت باتجاه بابل لم تتم في نصف قرن أو ربع قرن بل تمت في عشرة أعوام فقط بل أقل من عشرة أعوام . وقد كفاه مجداً وعظمة أنه قد حقق كل هذه الانجازات خلال جملة من المعارك لم يهزم في أي منها . بل كانت ألوية النصر معقودة له فكأن الرعب الذي كان يسبقه إلى بلاد أعدائه هو الذي يجعل كل معركة من معاركه أشبه بنزهة عسكرية أو مناورة من تلك المناورات التي يتدرب بها جنوده.

ولكن هل كانت عظمة الإسكندر نابعة من إنتصاراته العسكرية وحسب . وهل كان الغرض من تلك الجولة العالمية المجيدة فقط أن يرفع ألوية النصر في العواصم والمدن الكبيرة ؟

يقول الذين أرخوا لحياته أن هذا الفتى العملاق لم يصنع التاريخ باعتباره قائداً عسكرياً وحسب يجندل الأبطال ويخلع الملوك ويخضع الزعماء والأشراف ، وإن كان انجازه العسكري مما يمنحه صفات العملاق في التاريخ ، بل صنع هذا التاريخ بمواهب أخرى هي وحدها التي استقلت بابرار شخصيته العميقة والكشف عن قدراته الذاتية ووعيه برسائله الحضارية .

كان الإسكندر يخطط لتحقيق استراتيجية حضارية أن صح هذا التعبير . والاستراتيجية هذه تتصل بالعقل وترتبط بالرسالة الثقافية التي كان قد تلقاها عن استاذة أرسطوطاليس وغذته بها البيئة اليونانية ، تلك البيئة التي انهارت سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ولكنها في الوقت نفسه سجلت ازدهاراً ثقافياً لا شبيه له من قبله . لكأنه مزيجاً من المكاسب مكنه من أن يرتفع برؤيته الحضارية الانسانية إلى المستوى الذي يظن أن في وسعه أن يستوعب به شعوب العالم القديم .

وهذا يعني أن الاسكندر كان قائد فكر كما كان قائد جيش . وكان ذا رؤية انسانية واسعة يحلم معها بتوحيد الشعوب وإزالة الفروق الفكرية والاجتماعية بينها ، كما كان ذا فكر استراتيجي عسكري يطمح إلى تحقيق وحدة سياسية عالمية .

والواقع أنه قد نجح إلى حد بعيد في تحقيق استراتيجيته العسكرية لكنه لم ينجح في تحقيق رؤيته الانسانية ونقلها إلى خير الواقع . وفشله في تحقيق هذه الرؤية لا يرجع فقط إلى قصر عمره ولكنه يرجع إلى عوامل كثيرة هي أقوى منه ربما لأنها نابعة من الفطرة الانسانية ، وربما لأنها نابعة من عجز معاصريه عن فهمه واستيعاب الأغراض التي يستهدفها من تصرفاته .

ولكن ما هي تلك التصرفات التي صدرت عنه والتي سلطت الأضواء بعد مرور عدد من القرون على عصره أمام الذين أرخوا له ؟ ان فهمنا لجوهر تلك التصرفات واستيعابنا لابعادها يفرضان علينا العودة إلى استبانة الغرض من الفلسفات اليونانية التي تلقى خلاصاتها من أستاذة أرسطوطاليس ؟

إن أول ما يلفت النظر في الفلسفات اليونانية أن أصحابها كانوا يطمحون قبل كل شيء إلى توحيد الفكر الانساني . وهذه ظاهرة طبيعية نجدها عند كل الأمم الناهضة ذات الرسائل الفكرية العالمية . أي أن اليونانيين لم يكونوا استثنائياً من غيرهم من أبناء الأمم التي لعبت دوراً تاريخياً في الميادين الثقافية . أو ليس أن الرسائل السماوية ولا سيما الرسالة الاسلامية كانت ولا تزال ذات أهداف عالمية ؟

أو لم يأت الاسلام بعقيدة الوحدانية رسالة إلى كل العالمين ؟ المهم أن الاسكندر قد تشرب هذه العقيدة وآمن بقدرته على إيجاد نوع انساني موحد التفكير متحد الغايات تجمعه مثل عليا مشتركة فراح يفكر في إيجاد الوسائل العلمية التي تمكنه من تحقيق أحلامه في وحدة العقل الإنساني .

أول خطوة قام بها هي إنشاء مستعمرات ثقافية إلى جانب القواعد العسكرية أي أنه اصطحب أعداداً من الفلاسفة والعلماء اليونانيين وفرقهم في طول العالم القديم وعرضه اعتقاداً منه أن في وسعه تلقيح عقول العالمين بعقول اليونانيين . لكن هذه المحاولة تبقى ضعيفة الأثر في ظنه إذا لم ترافقها خطة معينة يمهّد بها لازالة الفروق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين اليونان وغيرهم من شعوب العالم القديم . ثم خطا خطوة أخرى غلب على ظنه أن في وسعه معها ازالة الفروق الجنسية بين الشعوب . وكانت طريقته في تحقيق تلك الخطوة أن يزوج أولاً بين اليونانيين والمقدونيين من جهة وبين الفرس من جهة أخرى . فيقال أن احدث في يوم واحد عشرة آلاف من هذه المزوجة وانفق مبالغ كبيرة من المال تشجيعاً عليها ومساعدة لاصحاب العلاقة على تحقيقها . وقد بدأ بنفسه وبكبار القادة وضباطه من جيشه بحيث يكونون قدوة لبقية جنوده .

ويروي أنه فكر بخطوة لاحقة ظن أن في وسعه معها تحقيق عملية المزج بين الشعوب . وخلصتها أن ينقل أعداداً كبيرة من رجل الفرس ونسائهم إلى بلاد البلقان في أوروبا الشرقية ثم ينقل مثل هذا العدد من رجال البلقان ونسائه إلى بلاد الفرس . ويقول أصحاب هذه الرواية : إن الموت قد عاجله فلم يوفق إلى تحقيقها . ويقولون أيضاً : أنه لو كتبت له الحياة لتغير وجه الأرض ولتحول سير التاريخ .

ولكن هل صحيح أن خطة الاسكندر المقدوني هذه كان يمكن أن يكتب لها النجاح ؟ وكيف يمكن أن تنجح وهو الذي عاصر جيلا يونانياً كانت تمزقه الأهواء وتفسده الشهوات وتفرق بينه الفلسفات والآراء المتعارضة ؟ وكيف يمكن أن تنجح وهو نفسه وأبوه من قبله ما كان في وسعهما أن يتغلبا على اليونانيين ، لو أن هؤلاء لم يفقدوا وحدتهم السياسية ونظامهم الاجتماعي وبالتالي وحدتهم الفكرية ؟

إن أحداً من المؤرخين لا يمكن أن يشك في حسن نيته وان كان غروره بالتفوق العقلي عند اليونانيين هو الذي كان يدفعه إلى مثل هذا التصرف.

ونحن لا نشك في أن هذا النوع من التفكير الاسكندراني لا يخلو من السذاجة كما لا يخلو من حماسة الشباب وروح التفاؤل عند المنتصرين.

أو ليس أن امة أوروبية حديثة حاولت أن تقوم بالتجربة نفسها في بلد من البلاد التي استعمرتها ؟ أو ليس أن فرنسا قررت يوماً من الأيام أن تفرنس الجزائر فاصدرت القوانين الكثيرة وفرضت عشرات الاجراءات واتخذت من سياسات الترغيب والترهيب ما لا سبيل إلى ايرادة في هذه المقالة ؟ ومع ذلك وبالرغم من القرب الجغرافي والوسائل الحديثة في ميدان الاتصال والاعلام المكثف والاعراض التي لا حد لها ، فإن فرنسا قد سجلت فشلاً ذريعاً في تحقيق غايتها. لقد أصر الشعب الجزائري على الاحتفاظ بلغته العربية وعلى الصمود أمام سياسة الفرنسية وعلى التمسك بترائه الديني والثقافي حتى جاء اليوم الذي أرغمت فيه فرنسا على الانسحاب من البلاد وأصبح الهم الأكبر لهذه البلاد بعد استقلالها أن تضع خطة مكثفة لرأب الصدوع التي احدثتها سياسة الفرنسة خلال مائة وعشرين عاماً ولربط شعبها بشعوب العالم العربي الاسلامي.

على أن سذاجة الاسكندر في هذا الميدان لا تقلل من ضخامة الانجازات التي حققها ، ولا تحول دون اعتباره واحداً من عمالقة التاريخ ... أولئك العمالقة الذين كانوا ولا يزالون أعمدة باسقة تقف فوقها وتستند إليها البنى الحضارية في العالم قديمه وحديثه.